موقع القيم من بعض فلسفات التربية

د٠ عبد الراضى ابراهيم محمد *

تشغل نظرية القيم علماء النفس والاجتماع والتربية ، ومن قبل هؤلاء جميعا الفلاسفة ، حتى ان بعض العلماء اعتبر القيم مصدرا أساسيا لأهداف التربية ، اذ أن هناك علاقة ضرورية بين القيم وأهداف التربية ذلك لأن أية أهداف تربوية ، ليست فى نهاية التحليل الا تعبيرا عن أحكام قيمية سواء كان هذا التعبير عن وعى أو عن غير وعى ٠

ومن هنا يأتى السؤال الرئيسى الآتى :

ما موقع القيم من بعض فلسفات التربية ؟

ويتفرع منه الأسئلة الآتية :

- ما المقصود بكلمة « قيمة » ؟
- ما مجالات استخدامها ؟
- ما الدواعى التى دعت الى دراسة القيم والتنظير لها ؟
- ما القيم فى الفلسفات الثلاث المختارة ؟
- لماذا يدرس المربون القيم ؟
- ما تصنيفات القيم ؟

حدود الدراســـة :

تتناول الدراسة القيم فى فلسفات التربية الآتية :

المثالية ، والواقعية ، والاسلامية ٠ وتستبعد البرجماتية ، اذ أفرد لها

(*) كلية التربية جامعة عين شمس ٠

الباحث مبحثا مستقلا · ولا تتناول الا القيم مستبعدة المباحث الأخرى من فلسفة التربية كالطبيعة الانسانية · المعرفة والاهداف ·· الخ ·

منهج الدراســـة :

تستخدم الدراسة المنهج التحليلى الفلسفى ·

خطة الدراسة :

ستتبع الدراسة فى سيرها الاجابة عن كل سؤال من الأسئلة المثارة سابقا ، ولذلك ستنقسم الى :

١ ـ ويتناول بيان المقصود بالقيم لغة ومصطلحا ويعالج مجالات استخدامها ·

٢ ـ ويبين القيم فى فلسفات التربية المختارة بالدراسة ولماذا يدرس المربون القيم ؟

٣ ـ ويقدم تصنيفات القيم ·

٤ ـ خاتمة الدراسة ·

١ ـ ما المقصود بالقيمة لغة ومصطلحا وما مجالات استخدامها ؟

المعنى اللغوى لكلمة : قيمة :

تأتى « قيمة لغة من قوم » قام المتاع (الشىء) بكذا أى تعدلت (١) قيمته به ، اذا فالقيمة هى الثمن الذى يقاوم به المتاع أى يقوم مقامه » ·

وشبيه بهذا المعنى ما نجـــــده فى معجم انجليزى ، اذ تعنى كلمة value الشىء الثمين ، ذا الأهمية (٢) ، والفعل يثمن ، يقدر والفعل اللاتينى valere يعنى القوة والشجاعة (٣) ·

أما المدلول الاصطلاحى ، فنجده فى مجالات متعددة ، منها الاقتصاد ، وعلم الاجتماع ، والسياسة ، والفنون ، والرياضيات والفلسفة ، والتربية ··

ـــ فعند علماء الاقتصاد حيث تعودوا تخصيص استعمال الكلمة لانفسهم ، نجدهم قد ميزوا القيمة فى الاستعمال ، والقيمة فى التبادل ·· ومن ثم صارت « للقيمة » فىالاقتصاد نظرية ترتبط بنظرية الثمن أو السعر·· وانقسمت الى نوعين : قيم الانتاج ، وقيم الاستهلاك ، وما يتبع ذلك من مسألة العرض والطلب ، يضمهما عنصران أساسيان : المادة الأولية من ناحية العمل والجهد الانسانى من ناحية ثانية ·

ـــ اما فى علم الاجتماع ، فتعد القيم « حقائق أساسية هامة فى البناء الاجتماعى ، وتشتق أساسا من التفاعل الاجتماعى ·

ـــ أما فى الفلسفة فتعد جزءا من « الأخلاق » والفلسفة السياسية ، وتعتبر القيم مبحثا هاما سواء فى الماضى والحاضر ·

وبعض العلماء يوسع من معانى المصطلح ، فيذكر أن للقيمة معنى : انسانيا ، ورياضيا ، وفنيا ، ومنطقيا ، ولغويا ·· وتوضـــيح ذلك على التوالى (٤) :

ـــ المعنى الانسانى للقيمة : ويتمثل فى أنها هى المثل الأعلى الذى لا يتحقق الا بالقدرة على العمل والعطاء ·· ويستأنس هذا المعنى بمـا انطوت عليه الكلمة اللاتينية (Valere) من صفات القوة والصـــحة والشجاعة ، وهى صفات تعد من الفضائل الاخلاقية ، التى تدل على قيمة الانسان ، وتعد خاصية من خاصياته واذا ما فقدها ، فقد فضليته ، تماما كما تفقد الأشياء خاصيتها أى فضليتها ، مثل المغناطيس خاصيته الجذب اذا فقدها فقد فضليته ، وقوته المؤثرة ، وبناء على هذا ، تصبح قيمة الشىء أو الانسان دالة على صفاته الطيبة التى يتصف بها ··

ـــ أما المعنى الرياضى للقيمة : فيتضح فى أن علماء الرياضيات يستخدمون كلمة « القيمة » للدلالة على الكم لا الكيف ، ففى علم الحساب والجبر ، تقع هذه القيمة العددية بين الصفر واللانهائية ·

ـــ وأما المعنى الفنى لكلمة القيمة : فنجد أنهـــا تجمع بين الكم والكيف فهى تعبر عن العلاقات الكمية التى بين الألوان والأصوات والاشكال، فالقيمة الفنية بالنسبة للرسام تتألف من النسب بين الظـــلال والأضواء

والألوان وفى الوقت ذاته الأمر نفسه بالنسبة للموسيقا : أى تتكون من النسب بين الأصوات والانغام · ولا شك فى أن القيمة الفنية تقع فى حدود الزمان والمكان ، فالفنون التشكيلية تخضع للمكان كما تخضع الموسيقى للزمان ··

ـــ وأما المعنى المنطقى للقيمة ، فيتمثل فى اعتبارها معيار الصدق فى الاحكام المنطقية والاستدلالات العقلية ، اذ ان الاستدلال الصحيح هو ذلك الذى يكون مطابقا لقواعد العقل والمنطق ·

ـــ وأخيرا « القيمة » اللغوية : لا تعنى المعنى اللغوى للكلمة وانما تعنى قيمة اللغة ، وهى لا تتأتى الا فى كون الكلمات لها « قيمة » نحوية تبين معناها ودورها فى الجملة ، وأن الالفاظ لها دلالة قوية ، وتتسم بالعمومية ، والاعتراف من جميع الناطقين بها والمتواصلين عن طريقها ، ومن ثم يستقيم التفاهم بين الناس ·

ويتضح مما سبق ، أن للقيمة معانى اصطلاحية تعددت بتعدد مجالات استخدامها فى النشاطات الانسانية ، وأن كل معنى من هذه المعانى يتخذ خاصية المعيار أو المحدد للمجال ، اذ يمكن أن يقال انه اذا فقد « قيمته » فقد معياره أو خاصيته · ولا أظن أن هذا التعدد يوهمنا بأن معنى القيمة اصطلاحيا فيه شىء من الغموض ، بل هو أدعى الى أن ينبهنا الى ما ينطوى عليه معنى « القيمة » من مستويات تجعل للقيمة « قيمة » فى سياق مجالها · ومن ثم برزت أهمية دراستها والتنظير لها · عند كثيرين من الفلاسفة المعاصرين لعدة من الحيثيات والمتغيرات ··

القيمة فى الفلسفة :

لقد اقتنع معظم الفلاسفة فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر ان مهمتهم الملقاة ع لىعاتقهم تتمثل فى بسط المبادىء المثالية ونشرها فى جميع مجالات المعرفة ، وتبعهم من الناحية المقابلة معظم العلماء ـ ما عدا المعتنقين للنظريات التطورية ـ فى ان واجبهم أن يعملوا على تغلغل مبادىء الميكانيكية فى تقسيم الظاهرات ، وعلى الرغم من هذا فان كلا من الفلاسفة والعلماء قد كانوا مذنبين ـ فى نظر قلة من مفكرى تلك الحقبة ـ وذلك لأنهم

تجاهلوا تفرد كل انسان فى المجتمع من حيث الخصائص التى يتميز بها ، فى أعماله وأفعاله ، وجهوده الخلاقة ، ولحظات حزنه وفرحه ، ووجهوا جل اهتمامهم لوضع نظم فكرية صارمة · ولم يكن ثمة صوت أعلى من صوت « نيتشه »(٥) - (١٨٤٤ - ١٩٠٠) يمثل تلك الأقلية من المفكرين ، حيث ركز كل فلسفته على الانسان الفرد باعتباره كائنا ديناميا يناضل ليس من أجل البقاء فحسب، بل أيضا هو سيد بيئتهمنوط به استثمارها وتسخيرها لتحقيق أهدافه ·· ومن هنا فالانسان يمثل عند ارادة القوة ، وهذه الارادة تمثل عند « نيتشه » : القيمة العليا » ·· ولم يصل الى هذه القيمة الا عندما قدم فى فلسفته مشكلة القيم ·

وأدى قيام الحرب العظمى الى زعزعة كثير من الافكار لدى المفكرين الفلاسفة ورجال الاقتصاد ، وراحوا يبحثون فى موضوع « الخير والحسن، والشر ، والقبيح ، وأطلقوا على هذا « قيمة » وترتب على هذا مراجعة كثير من المسلمات الفلسفية ورفض كثير من القيم التى كانت سائدة فى حياة الغرب ، وجهت حركة السياسة والاقتصاد ··

وهكذا ظهرت نظرية « القيم » أو « علم القيم » أو ان شئت فلسفة القيم » Axiology · وكثيرون من الفلاسفة يعزون ظهور هذه الكلمة « اكسيولوجى » الى الفيلسوف الالمانى « نيتشه » بينما يرى آخرون أن أول من استعمل هذا المصطلح فيلسوف أمريكي يدعى « أوربان »(٦) ·

ومهما يكن الأمر ، فان « علم القيم Axiology » أو نظرية القيم » مبحث من مباحث الفلسفة ظهر حديثا · ·واستخدم فى الفلسفة القديمة والحديثة على السواء ·

و « علم القيم » أو نظرية القيم مهمتها تنحصر فى القيام بعملية تحليل المفاهيم وتنظيمها ، وذلك بالبحث فى طبيعة القيم وأنواعها ، ومعاييرها ، وتعتبر وثيقة الصلة بعلوم المنطق والاخلاق والجمال والالهيات ·· وعلم الاجتماع (٧) ·

وظهرت بعد ذلك اعمال الفلاسفة والمفكرين فى البحث عن جذور البناء القيمى فى الفلسفات القديمة « ووضعت لها التصنيفات الخاصة بها ·· وفقا

لعلم القيم أو نظرية القيم ، فماذا نحن واجدون بالنسبة لكل فلسفة من الفلسفات الثلاث ؟

٢ ـ القيم فى فلسفات التربية الثلاث :

أولا : فلسفة التربية المثالية :

تمتد هذه الفلسفة فى جذورها الى أفلاطون وحتى المثالية الحديثة ، تعتمد فلسفة التربية المثالية على الاساس القيمى الذى وضعه أفلاطون متمثلا فى عالم المثال ٠٠ أو « عالم القيم » ويتميز هذا العالم بأنه (٨) :

- عالم أولى Appriori ـ بمعنى سابق على الوجود المحسوس٠
- عالم مطلق ثابت أزلى ٠٠
- تم تحديده اما بواسطة قوة الهية ، أو عقلانية الانسان ٠
- عالم مجرد متسام ويدرك بالعقل أو التصور أو الحدس الجدلى

ويبقى عالم القيم المجرد المتسامى (المثل) أكثر « حقيقة » من التصور أو السلوك ٠٠ والتصور والسلوك يسعيان جاهدين الى الاقتراب من القيمة فى عالم المثل ٠٠

ويجمع عالم القيم المثالى مثلث افلاطون المعـــروف الحق ـ الخير الجمال ٠ ٠أو مثلث القيم العليا ٠٠ فقيمة « الحق » لها ثلاث مستويات (٩):

(أ) صفة عينية كامنة فى طبيعة الاقوالوبالتالى يصبح الحكم بصواب القول أو خطئه ثابتا لا يتغير ٠

(ب) ما طابق القواعد والمبادىء الأخلاقية ٠

(جـ) ماطابق الواقع أو ما يبعث على التسليم لوضـــــوحه وتميزه ومطابقته للمبادىء العقلية ٠

وأما قيمة « الخير » فهى صفة كامنة فى طبيعة الافعال (السلوك) ومن ثم تكون ثابتة لا تتغير ٠٠ والخير ضد الشر ، ويراد به كل ما يبعث

على الرضا والاستحسان لكماله فى نوعه ، أو لملاءمته أو لفائدته أو لاتفاقه مع الأوامر الالهية ٠٠ ، والخير والشر من المعايير الكبرى للقيم الاخلاقية

وأما القيمة الثالثة : « الجمال » فهى صفة قائمة فى طبيعة الاشياء ومن ثم فهى ثابتة لا تتغير ، ويصبح الشىء جميلا فى ذاته ، أو قبيحا فى ذاته بصرف النظر عن ظروف من يصدر الحكم (١٠) ٠

ويتضح مما سبق أن القيم العليا الثلاث ٠٠ كائنة فى طبيعتها ثابته لا تتغير بتغير الظروف الوجودية والملابسات ، مطلقة ، لها كينونتها فى الوجود الخارجى ، سواء وجدعلى الأرضانسان أو لم يوجد ، وهى بطبيعتها اذن متعالية فى عالم المثل ٠٠ وفقا لهذه الفلسفة يصبح « الانسان حامل القيم carrier of values الذى يأخذ على عاتقه مهمة تحقيق الغاية الالهية على الأرض (١١) ، بمعنى أن الانسان هو همزة الوصل الوحيدة بين « الواقعة أو الحدث » و « القيمة » فهى الجسر الحقيقى الذى تعبر فوقه الطبيعة لكى تتحول الى « ملكوت قيم » ٠

ومعنى ما سبق أن القيم فى المثالية تمثـــــل ما يجب أن يكـون "ought to be" والفعل الانسانى « السلوك » يمثل « ما يجب أن يفعل "ought to do" ، ومهما حاول الانسان اتيان ما يجب أن يفعل ، فان ما يجب أن يكون يبقى مطلقا « مثالا » ، بمعنى أن القيم فى المثاليـة أو الواجب أن يكون « تتسم بالاطلاق ٠٠ فالقيمة كجوهر مثالى روحى أولى، يؤثر ولا يتأثر ، لأن القيمة مفارقة الزمان والمكان (١٢) ٠

ظلت ـ ومازالت ـ القيم المشتقةمنالفلسفة المثالية قديمةوحديثة تشكل مصدرا تشتق منه أهداف التربية ، وتكون ما يطلق عليه التربية الخلقية "Moral Education" وانعكس ذلك على عناصر العملية التعليمية والتربوية ، بهدف تمكين القيم من المتعلم ، بحيث تكون بمثابة الضابط والموجه لسلوكه ، وكلما اقترب فى سلوكه من « المثال » القيمى كلما كان انسانا مثاليـــا ٠

واذا ما حاولنا تدقيق النظر فى القيمكما جاءتفى المثالية نجدها تقسم العالم الى عالمين ـ كما يذكر محمد الهادى عفيفى فى أكثر من موضع ـ

عالم مثالى علوى ، وآخر واقعى هابط ٠٠ وتشير الى ان القيم العليا لها حق السيادة ، ومن ثم فهى هدف للنظريات الاخلاقية ، لأنها ثابتة أزلية وخالدة ، ولا يستطيع أن يصل اليها الا العقل المتسامى على كل ما يتصل بشهوة الانسان ٠٠ أما ما يجرى فى هذا العالم المادى ، فانه مضطرب متذبذب متغير لا يمكن التحقق من صدقه ، كما لا يمكن اعتباره مصدرا لتوجيه السلوك ، فالصدق والكذب كلاهما خاصيتان قائمتان ساكنتان فى الأشياء ذاتها ، أما « الحقيقة » السامية فهى « الوجود » الحق ، وأما « الحقيقة » الوضعية الناقصة « فوجود » باطل « لأنها تدعى الحقيقة التى لا تستطيع أن تثبت صحتها وصدقا (*) ٠

ثانيا : فلسفة التربية الواقعية :

بينا فيما تقدم ، كيف أن القيم عند « د عاة » المثالية ، كانت تحتل الأولوية المطلقة ، وانها سـابقة على الوجود الواقعى ، بل وتأتى فوقه ، ومستقلة عنه ، وانها تدخل فى باب « المفهومات » والتصورات الميتافيزيقية فى العقلية ، وانها محددة سلفا ، أما عن طريق مصدر الهى أو عقلى ، ومن ثم متسمة بالثبات والاطلاق ، والخلود ، والاستمرار ، وانها متسـامية لكونها تقع هذا الموقع المغرق فى مثاليته بعيدا عن العالم المادى ، وظل الأمر كذلك منذ ان وضع افلاطون مثلثه القيمى المعروف ، الذى ظل غالبا على تاريخ الفلسفة ، الى أن ظهرت الواقعية والواقعية ضاربة بجذورها فى التاريخ الفلسفى للفكر البشرى ٠٠ وتجدر الاشارة الى أن الواقعية تكاد تكون على النقيض من المثالية من حيث وضع القيم ، فنقول « تكاد » لأنها بداية تطورها ، قالت بأن القيم خالدة ومستمرة وثابتة وعامة ، بمعنى أن القيم من وجهة النظر الواقعية فى بدايتها معايير خلقية تحكم حركة الانسان فى عمومها ، وترجع بداية هذا التطور الحديث للتيار الواقعى منذ أن بدأ

(*) راجع لمزيد من التفصيلات :

- محمد الهادى عفيفى - فى أصول التربية - الأصول الفلسفية للتربية ، مكتبة الانجلو ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ص ٤٢٢ - ٤٣٠ ٠
- محمـد لبيب النجيحـى ، فلسـفة التربية ، القـاهرة ، ١٩١٦ ، ص ص ٢٤٩ - ٢٥٧ ٠

« ايمانويل كانط I. Kant » (١٣) النظر الى القانون الاخلاقى على أنه من مدلولات العقل ، أى أن هناك مجموعة من القيم مثل قيمة الحرية ، والله ؛ لا يمكن تبريرها عمليا ، ومع هذا فانه للدواعى العملية أى الفعل الاخلاقى ، فان هذه القيم يجب أن تفترض مسبقا ، و « كانط » بقوله هذا وضع أولا : أولوية الحاجة العملية والتى بالنسبة له أكثر نفعا — فوق المفاهيم النظرية للعقل · وثانيا : الغى امكانية وجود مكانة ميتافيزيقية للقيم والتى تنتمى دائما الى مجال المفاهيم أو التصور العقلى أو العقل النظرى ·

ويعتبر التطور الحديث لدراسة القيمة منبثقا من « كانط » الذى وضع بداية لتطور هذا المبحث فى سياق تطور التيارات الفلسفية الرئيسية ·

ولعله من المعروف أن الواقعية تشـــمل فيما تشـــمل : الطبيعيين Naturalists والتجريبيين Empirisists ، وغيرهم ، ويرى هؤلاء جميعا أن القيم يستدل عليها عن طريق التجربة والحس · وذلك لأنها نابعة من الواقع المحسوس ومن ثم فهى متغيرة ونسبية ، ويمكن قياسها باصطناع وسائل علمية وبحثية ، وما يطلق عليه « قيمة » ليس الا حقيقة موضوعية (١٤) ، قابلة للتقصى والبحث والتحديد كأى موضوع ما دى قابل للبحث فى العلوم الطبيعية ، وتصبح القيم ، بناء على هذا ، « فعلا اجتماعيا» له ضوابطه ومقاييسه ومواقفه العملية عندما يتفاعل الانســـان ومعطيات الواقع (١٥) ·

ولعله من الواضح أن هذا التيار مهد الطريق الى ادخال القيم فى مباحث علم الاجتماع وبخاصة فيمـــا عرف بعلم اجتماع القيم من أوسع أبوابه ··

وصارت القيم بذلك قيما اجتماعية حافزة للانسان على العمل ، ومولدة قيما أبعد منها ··· وهكذا ·

وفى سياق تطور الواقعية ظهرت الواقعية الجديدة فى أوربا وأمريكا الشمالية ·· وظهر لها دراساتها فى مجال نظرية القيم محكومة بمبادئها ·· فهم يرون أن (١٦) ·

(أ) الطبيعة ووجود الأشياء مستقلان عن معرفتنا ..

(ب) أن ما نخبره من خصائص الأشياء ليســـــت فى حقيقة الأمر الا خصائص الشيء ذاته ..

(حـ) ان الأشياء (الموضوعات) وخصائصها معروفة بطريقة مباشرة وقد انعكست هذه الاتجاهات الحيادية للواقعية على القيم بدورها .

والأمر الذى لا شك فيه أن هذه الفلسفة اتخذت لنفسها نظرية قيمية لتكون أساسا للتربية الخلقية مثلما فعلت المثالية .

ثالثا : فلسفة التربية الاسلامية :

من المسلمات المتفق عليها ، أن الدين الاسلامى ينزع الى الشمول ، سواء من حيث تجاوزه للمكان ـ شبه جزيرة العرب ، فلم يأت خاصا بهم بل للناس كافة ومن حيث شمولية تطبيقه ـ نظـــــاما وتنظيما وقواعـــد وتشريعات ـ على جميع نواحى الحياة ، فردا وجماعة ، ثم أنه شمل أيضا حياة الانسان الدنيا ، وحياته فى الآخرة ، والعلاقة بينهما ترتيبية ، فكيفما يكون العمل فى الدنيا ، تكون النتيجة فى الآخرة ..

فهو دين موجه للناس كافة ، لا فرق بين عرب وعجم ، وجنس وجنس « وما أرسلناك الا كافة للناس » (سبأ آية ٢٨) ، « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (الانبياء ، آية ١٠٧) .

والفلسفة الاسلامية ليست كغيرها من الفلسفات تعتمد على منطلق فلسفى من نتاج كدح وقدح العقل البشرى ، وانما تتخذ منطلقها من القرآن ، والسنة الصحيحة ، واجتهاد العلماء والفقهاء باختلاف مدارسهم وعصورهم، معتمدة على هذين المنطلقين اللذين يمثلان فى نهاية التحليل منطلقا واحدا ، ذلك لأن السنة الصحيحة شارحة وموضحة لما جاء فى الكتاب .. عليكم بكتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، ومن اتبع الهدى فى غيره أضله الله ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم » .

ومنذ البدء كان الاسلام حياة وحركة ، يشق طريقه ويبث مبادئه وقيمه فى مجتمع مغاير تماما لما جاء به ، ومن ثم يكون فى مجموعه نظاما اجتماعيا له قيمه ومعاييره ، فما القيم التى تضمنتها الفلسفة الاسلامية التى سادت وسيطرت بدلا من القيم التى كانت سائدة فى المجتمع الجاهلى ؟

تصنيف القيم فى فلسفة التربية الاسلامية :

العلم ، والعمل ، والتقوى ، والعدل ٠

★ العلم (١٧) : لا نجد كبير مشقة فى أن نستدل على قيمة « العلم» فى الفلسفة الاسلامية ، فما أكثر الآيات القرآنية والأحاديث التى نوهت بقيمة العلم وأهميته فى بناء الحضارة الاسلامية ٠

★ علم الانسان مالم يعلم ٠ بعد تمكينه من أدوات ومفاتيح العلم ، قراءة ، وكتابة « أقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم » ٠

والمستقرىء للتاريخ الحضارى للمسلمين يلحظ ما يكاد يقترب من القانون أنه كلما سادت قيمة العلم ، متآزرة والقيم والأخرى ـ ازدهرت الحضارة الاسلامية ، وكلما انحسرت وتضاءلت قيمة العلم بسبب عوامل وتغيرات ـ دب الوهن والضعف فى البناء الحضارى ٠٠

والعلم كقيمة يدفع الى التعلم فيكون ثمة عالم والعالم يعلم غيره » ٠٠ وهكذا ، ونتج عن هذا أن عرف المسلمون نوعين من العلم ، علوما شرعية وأخرى تتعلق بالحياة المعاشية ٠٠

فأما العلوم الشرعية فكانت متمثلة فى القرآن الكريم والتفسير والحديث والفقه وأصوله وعلوم اللغة ، والتاريخ ٠٠

وأما العلوم المتعلقة بالمعاش فكانت الرياضيات من حساب وهندسة وفلك وموسيقا ، وطب وكيمياء ونبات وحيوان ٠٠

ولقد اتخذت قيمة العلم فى الحضارة الاسلامية طبيعة اجتماعية ، فكما سبقت الاشارة ، اذا حدث اهتمام بالعلم كقيمة وبالتالى العلماء كانت قيمة

العلم رفيعة - والعكس صحيح ·· واية ذلك ، عندما وجه الغزالى للفلسفة والرياضة والطب وما الى ذلك من علوم الطبيعة ، النقد تدنت قيمة العلم والفلسفة وبالتالى تدهورت الحضارة الاسلامية ·

وكانت لها قبل ذلك مكانة - أى قيمة العلم - سابقة ومثالنا على ذلك « أبو نصر الفارابى » عندما كان يحظى بمكانة بارزة عند سيف الدولة، حظيت الموسيقا التى وضع لها أصولها والفلسفة التى كان علما فيها بمكانة رفيعة وغيرها من العلوم ·

ويمكننا أن نرجع الى عصر المأمون لنرى كيف ان احتفاله واهتمامه بالعلم والفلسفة ادى الى ازدهار حركة الترجمة من تراث اليونانية وغيرها من الحضارات البارزة الى العربية ، فكان ازدهار وتوليد فكر وخبرات ذات سمات اسلامية ·

ولكن السؤال الآن ·· هل القيمة هنا - قيمة العلم - فى حالة تذبذبها، مردها الى الدين الاسلامى ، أم الى مواضعات اجتماعية وثقافية ؟ (١٨)

الثابت - نصا - الاعلاء من قيمة العلم نظـــــرا وتطبيقا كما سبق وأشرنا ·· وعندما نتحدث عن الفلسفة الاسلامية ، فنحن نتحدث عن فكر ومجتمع وتفاعل بينهما ومن ثم يختلف النظر الى قيمة العلم ، واختلف بالفعل من عصر الى عصر ··· ومن نظام اجتماعى سياسى اسلامى الى آخر وثمة وراء كل هذه عوامل وعوامل ··· بعضـــــها داخلى وبعضها خارجى (١٩) ·· وهذا مبحث آخر ليس هنا مكانه ولا أوانه !!

ويمكننا - على أية حال - ان نخرج ببعض الملحوظات : -

- أن قيمة العلم والعلماء احتلت مكانة بارزة فى الحضـــــارة الاسلامية ·
- أن قيمة العلم والعلماء خضعت للتفضيل ، بمعنى ارتفع شأن علوم ، وانخفض شأن علوم ··

ان النص حدد القيمة بأنها النظر العلمى فى شئون حياة المسلمين

دنيا ودين ، وعندما أصيبت القيمة - قيمة العلم - بخـــلل فى تركيبها أو طغيان جانب على جانب أصيب المجتمع الاســـلامى بالخلل ذاته والعكس صحيح ٠

كان ذلك موجزا - أرجو أن يكون دالا ومفيدا - عن قيمة العلم فى التيار الاسلامى ٠٠٠

والآن ننتقل الى قيمة العمل ٠٠

كما اتخذت قيمة العلم مكانة عليا فى الدين الاسلامى - على مستوى النصوص ، وتذبذب مكانها بين العلو والتدنى فى الممارسة ، اتخذت قيمة العمل ، مكانة عالية فى النصوص ، وكان أمرها أمر سابقتها من حيث الممارسة والتطبيق ٠٠٠٠

فما مكانتها ؟

جاءت « قيمة العمل » فى مقدمة القيم ، ولم تكن مكانتها أقل من قيمة العلم ، وانما هى مرتبطة به ، ذلك لأن أى علم يتعلمه المسلم يصبح مجردا ، اذا لم يتحول الى عمل ٠٠ فالعمل والعلم قيمتان متساندتان ، احداهما على الآخرى ، ولو أحصينا الآيات التى ترددت فيها كلمـــة العمـــل ومشتقاتها ٠٠ لوجدناها من الكثرة بحيث أنها لتوحى اليك بأن الاسلام دين علم وعمل وما يرتبط بهما من قيم تضبطهما ، كما سترى بعد قليل ٠

فلا ايمان بغير عمل ٠٠ ولا علم بغير عمل ٠٠ وقيمة العمل ذات بعدين فى فلسفة التربية الاسلامية ، تماما مثل قيمة العلم - بعد دنيوى وبعد دينى والبعدان أيضا متساندان ، ولذلك فثمة قيم تحكم قيمة العمل اجرائيا ان جاز أو صح التعبير ٠٠ مثل الاتقان ، والأمانة ، والصدق ، وما الى ذلك من قيم ملازمة لقيمة العمل ٠٠٠

وكثيرا ما جات قيمة العمل فى صورة بعيدة عن مادة « ع م ن » ومشتقاتها ٠٠٠ انظر قول الله تعالى : « ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون » (الاعراف ، آية ١٠) وقوله تعالى « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه واليه النشور (تبارك آية ١٥) ٠

والفلسفة الاسلامية فى منطلقها هذا لقيمة العمل تلغى الثنائية تماما بين العمل والفكر ٠٠ العمل فى الدنيا يؤدى - ان تم وفقا لضوابط الحلال والحرام ، والطيب والخبيث ، - يؤدى الى صلاح صاحبه فى الآخرة ، ويتبوأ مكانه فى يوم النشور - القيامة - حيث الحساب ٠٠ الملائم وفقا لما قدمت يداه ٠٠ ان كان خيرا فخير ، وان كان شرا ، فجزاؤه عند ربه ٠

اذن نخلص من ذلك الى أن قيمة العمل محكومة بمجموعة من القيم الضابطة لها ، قيم خلقية مصدرها الحدود والاحكام الشرعية ٠٠ كالاتقان ، وصلاح العمل ٠٠ من أمانة وصدق ، وزيارة منك لما خلفه المسلمون فى مصر الاسلامية من آثار توقفك على ما كان وراء هذه الأعمال من دقة واتقان وصبر ومثابرة وكيف عبرت عن ثقافة أمة وحضارة قوم ، كونت فلسفة التربية الاسلامية موجهات سلوكهم ٠٠

وهناك - فى شبكة القيم فى فلسفة التربية الاسلامية - قيمة «التقوى» فما التقوى ؟ كما سبق وأشرت أن العلاقة بين القيم فى الفلسفة الاسلامية علاقة تساند وتشابك ٠٠ وبناء عليه فان قيمة التقوى تمثل ركيزة أساسية لقيمة العمل ٠٠ والتقوى بمثابة المعيار الذى يقاس العمل به واليه ٠٠٠ فهى فى الشريعة تعنى صون الانسان لنفسه من الاتيان بأفعال تجب المعاقبة عليها ، أو ترك أفعال يثاب عليها ان فعلها ويعاقب لتركها (٢٠) ٠

والتقوى فى النص القرآنى ترتكز على دعامات ثلاث : الايمان بالغيب، اقامة الصلاة ، الانفاق مما رزقهم الله ٠٠ قال تعالى « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » (البقرة آية : ٣) وكما ترى هذه الدعامات كلها اجراءات وأفعال ، الصلاة فعل وصلة بالله ٠٠٠ ومن قبلها الايمان بالغيب ٠ اجراء ادراكى - ان صح التعبير للذات العارفة « الله » ٠ والانفاق « تواصل اجتماعى سلوكى ٠٠ تكافلى ٠٠٠٠ اذن هى قيمة موجبة، وضابطة فى الوقت نفسه لقيمة العمل ٠٠ بل هى ركيزة أساسية يستند عليها العمل ٠٠ ويتحرك صوب الهدف بها ووفقا لها (٢١) ٠٠

ولعلنا نتوصل الى نتيجة مؤداها أنه ، كلما سادت التقوى - كقيمة - اعمـــال المسلمين أدى ذلك الى وجود وتواجد المجتمع الاسلامى المزدهر

القوى ٠٠ والعكس ٠٠ صحيح !! ويذهب أحد الثقاة الى اعتبار قيمة التقوى فى الفلسفة الاسلامية على رأس منظومة القيم (٢٢) ٠٠

وبعد أن انتهينا من قيمة التقوى ، نأتى الى : قيمة العدل ٠

القيمة العليا للعدل ، تتمثل فى العدل الالهى ٠٠ والعدل نقيض الظلم أو الجور ، أو التعدى ، وما أكثر الآيات الدالة على ذلك ٠

وقيمة العدل فى الاسلام ذات مضـــمون اجتماعى ، وبعض المذاهب الاسلامية فى الفكر الاسلامى وضعت العدل على قيمة المبادىء (المعتزلة) وكانت خمسة مبادىء ٠ وعندما صارت هذه القيمة حية ، بمعنى اجرائية عند عمر بن الخطاب ، كان المجتمع الاسلامى آمنا والحاكم أمينا فآمنا ٠٠ « حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا همر !! » ، وهذه القيمة لا تستثنى من قانون التساند القيمى فى التيار الاسلامى ٠٠ « اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله » ٠ قيمة العدل اذن ـ اجراء وممارسة ـ تفضى الى التقوى أو هى محكومة بها ٠٠ مثل العمل تماما ٠٠

وقيمة العدل ٠٠ تعمل على مستويات ٠٠ الفرد عندما يكون وسطا أو نصفا فى حياته ، ذلك أن العدل ينطوى على « النصف » ، وعلى مستوى الأسرة ، وعلى مستوى الجماعة ، وعلى مستوى الحاكم ٠٠

وما سقت هذه المجموعة من القيم على سبيل الحصر ٠٠ ولكن على سبيل التمثيل ٠٠ ذلك لأن هذا المجال واسع وعميق ويستحق دراسة تتوفر لها أسباب ووسائل ٠٠ ومكان أوسع من هذه المساحة ٠٠ وفيها مباحث كثيرة وشواهد أكثر من التاريخ الثقافى للامة الاسلامية ٠

وليس أصدق دليل على ما قلت من ذلك الفيض من البحوث والدراسات التى عمدت الى دراسة العلاقة بين الدين والقيم ، وما لـــه من تأثير فى « النسق القيمى » وظهور ما يطلق عليه » علم الاجتماع الدينى » (٢٣) ذلك أن القيم فى فلسفة التربية الاسلامية ، ذات مضمون اجتماعى وأنها تؤثر تأثيرا واضحا على انساق القيم الأخرى فالنظم السياسية فى تاريخ الحضارة الاسلامية ـ وفى فترات الازدهار كانت مؤسسة على القيم الدينية ، سواء

فى ذلك التعليم والاقتصاد والحرب والسلم والعلاقات الاجتماعية والفنون والآداب والعلوم ٠٠ وما الى ذلك من عناصر البناء الحضارى للامة ٠٠ ممثلة - أى القيم الدينية - ممارسات ضابطة للسلوك الانسانى تدعيما وتعزيزا للبناء الحضارى ٠٠

ولعلنا يمكن أن نخلص مما سبق الى أن القيم فى التيار الاسلامى ، اتسمت بالشمولية ، والتكامل والتساند فيما بينها ، وبالاستجابة لمقتضيات مطالب التطور الاجتماعى (الاجتهاد) فهى لم تكن قطعية أو جامدة ٠٠ مادامت مطالب التطور هذه لا تعطل حدا ، أو تنتهك تشريعا منصوصا عليه - ودليلنا على ذلك حركات الاصلاح الاجتماعى والحضـــــارى فى الثقافة الاسلامية لنقف على اجتهاد الثقاة من روادها ٠٠ فيما حاولوه من وضع اطار قيمى ينتشل الأمة فى فترات ضعفها من هذا الضعف أو التدهور(*)٠٠

وبعد فراغنا من القيم فى فلسفات التربية الثلاثة نخلص الى نتيجة مؤداها ٠٠٠ ان جميع هذه الفلسفات مثالية وواقعية واسلامية ، اعتبرت القيم بمثابة معايير تقوم بتوجيه وضبط سلوك الفرد نحو مجتمعه ونحو بيئته ، ويختلف موقف الفرد من هذه المعايير باختلاف المنطلقات العلمية التى انطلقت منها ٠٠ فبعضها ، يجعل الانسان نفسه أمامها مجرد منفذ لها ، وليس له الحق فى مناقشتها ، وممثل لها - وبعضها أعطى الانسان حق الاختيـــــار ٠

وما دام الأمر كذلك فان القيم بصورتها التطورية هـــــذه ، تحمل مضامين اجتماعية ، كما أنها قابلة للتعلم والاكتساب ، ذلك لأنها فى نهاية التحليل تعد أهدافا تربوية ، وعلى هذا الأساس يحسن أن ننظر اليها نظرة اجتماعية ، والمسوغ لهذا أن التربية عملية اجتماعية ولعل هذا يفضى بنا الى الحديث عن المفهوم الاجتماعى للقيم فما هو ؟

يرى المفهوم الاجتماعى القيم أنها ، الحكم الذى يصدره الانسان على شىء ما مهتديا بمجموعة المبادىء والمعايير التى وضعها المجتمع الذى يعيش فيه والذى يحدد المرغوب فيه والمرغوب عنه من السلوك (٢٤) ٠

والقيمة تتضمن قانونا أو مقياسا له شيء من الثبات على مر الزمن ينظم نسق الافعال والسلوك ٠

وما دامت القيم معايير اجتماعية ، تعتمد على التفضيل ، اذن ما تصنيفاتها من المنظور الاجتماعى ؟

بعد أن تقدمت دراسة القيم فى علم الاجتماع القيمى أمكن اصطناع مقاييس وأدوات ، وأجريت دراسات أجنبية كثيرة ودراسات مصرية ، وخرجت الينا بتصنيفات للقيم ٠

من بين هذه الدراسات دراسة « البرت وفيرون » واستخدما فيها اختبارا بنياه على مسلمة مؤداها أن بعض المهارات تعكس أفكار الناس وأفعالهم ، ومن ثم قيمهم ٠٠ وتوصلا الى وضع تصنيف للقيم - بناء على الدراسة ، على الوجه التالى (٢٥) :

١ - قيم نظرية ٠
٢ - قيم اقتصادية ٠
٣ - قيم جمالية ٠
٤ - قيم سياسية ٠
٥ - قيم دينية ٠

ولكل قيمة من القيم السابق تصنيفها معنى أو مفهوم ٠

فالقيم النظرية تعنى : اهتمام الفرد وميله الى اكتشاف الحقيقة ، وسبيله الى ذلك الاتجاه المعرفى من العالم المحيط به ، يوازن بين الاشياء على أساس ماهيتها ، ويسعى الى معرفة القوانين التى تحكم هذه الأشياء ، دون النظر الى قيمتها العملية أو الى صورتها الجمالية ، لذلك نجد أن الاشخاص الذين يضعون هذه القيم فى مستوى أعلى من مستوى غيرها من القيم ، يمتازون بنظرة موضوعية نقدية معرفية تقيمية ، وهم عادة يكونون من الفلاسفة والعلماء ٠

وأما القيم الاقتصادية : فالمقصود بها ميل الفرد واهتمامه الى ماهو نافع وفى سبيل ذلك يتخذ من العالم المحيط به وسيلة يحصل بها على الثروة وزيادتها عن طريق الانتاج والتسويق والاستهلاك واستثمار الأموال ،

وأصحابها يمتازون بنظرة عملية ، تقوم الأشياء تبعـــا لمنفعتها ، وعادة ما يكونون من رجال الأعمال والمال ٠

وأما القيم الجمالية : فتعنى اهتمام الفرد بكل ما هو جميـــل من ناحية الشكل أو التوافق ، وهو ينظر ـ لذلك ـ الى العالم المحيط به نظرة تقدير له من ناحية التكوين والتنسيق والتوافق الشكلى ٠ وليس بالضرورة أن يكون هؤلاء من الفنانين المبدعين ، وانمـــا لديهم القـــــدرة التذوقية للجمال والفن ٠

وأما القيم السياسية : فيقصد بها اهتمام الفرد بالحصول على القوة بهدف السيطرة والتحكم فى الاشياء أو الاشخاص ، أى يتصفون بقدرتهم على توجيه غيرهم والتحكم فى مصائرهم ٠

وأما القيم الدينية : فالمقصود بها اهتمام الفـــرد وميله الى معرفة ما وراء الطبيعة أو العالم الظاهرى ، فهو راغب فى معرفة أصل الانسان ومصيره ويرى أن هناك قوة تسيطر على العالم الذى يعيش فيه ، ويحاول أن يربط نفسه بهذه القوة بصورة ما ، ولا يعنى ذلك أن الذين يمتازون بهذه القيم من النساك والزاهدين ، فأكثر الناس يجدون اشباع هذه القيمة فى طلب الرزق والسعى الى تحقيق أهداف اقتصادية وانسانية ٠٠

وليس معنى ما تقدم من تصنيف ، ان الناس يتوزعون تبعا له وانما يعنى أن هذه القيم توجد جميعها فى كل فرد ، وتختلف فى ترتيبها من فرد الى آخر قوة وضعفا لدى الفرد نفسه ولدى مجموعات الافراد وهو ما يطلق عليه النسق القيمى أو السلم القيمى ٠

فما المقصود بالنسق القيمى ؟ يقصد به الترتيب الهرمى للقيم عند فرد ما أو جماعة ، ويكون بذلك مجموعة من المعايير التى يصبح بها السلوك القيمى معقولا ، ويربط الفرد بهويته والمجتمع بتقاليده ، بحيث تكون العلاقة بينهما واضحة ومنظمة ، سواء كانت هذه المعايير والمبادىء معلنة أو ضمنية وكل مجتمع يتضمن قيما بعينها ، يعمل من خلال مؤسساته المختلفة على دوامها واستمرارها ٠

ومهما تعـددت منطلقـاتها ليست الا قيما خلقية أو أخلاقية تسـعى المؤسسات المعنية الى تعميقها لدى الناس · والتربية كمؤسسة اجتماعية يقع عليها العبء الاكبر فى تحقيق هذه المهمة ·

فكيف يتم ذلك ؟ وما الوسائل الملائمة لتحقيقه ؟

وما العلاقة بينها وبين المؤسسات الأخرى ؟ من هنا تبدأ الخاتمة ·

ـــ ان المجتمع كله مسئول عن تحقيق القيم واكسابها للاجيـال الناشئة من خلال سلوك أفراده اليومى ·

ـــ ولعل هذا يؤكد ـ بما لا يدع مجالا للشك ـ أن غرس القيم وتنميتها ليست وظيفة معلم التربية الدينية بمفرده ، بل وظيفـة جميع المعلمين شعروا بذلك أم لم يشعروا ·· ووظيفة جميع مؤسسات المجتمع متكاملة مع المؤسسة التربوية أى المدرسة ، وليست المدرسة وحدها ·

ومظاهر الصراع القيمى الموجودة فى مجتمعنا يمكن أن نحد منها وتوجهها التوجيه السليم لو أن التربية بمعناها النظامى وغير النظامى ولو أن المدرسة بمناهجها داخل الفصل وخارجه أولت القضية ما تستحقه من اهتمام ··

ولو حاولنا أن نضع نظرية قيمية للتربية تستمد أصولها من فلسـفة التربية الاسلامية مع ملاحظة أن القيم الاسلامية فى صميمها شمولية النظر وترفض كل تجريد أو ثنائية ·

ربما تفتح هذه الدراسة الباب الى بحث جديد يبدأ بسؤال الى أى مدى يمكننا أن نستلخص نظرية للقيم التربوية تراعى المنبع الحضـارى الاسلامى ومعطيات الواقع ·

المراجع والهوامش

١ ـ المصباح المنير ، مادة (قوم) ص ٧١٤ ٠

2. The Concise Oxford Dictionary, 1979, p. 1285.

٣ ـ نازلى اسماعيل حسين ، **فلسفة القيم** ، القاهرة ، مكتبة سعيد رأفت د٠ ت ، ص ٣٢ ٠

٤ ـ **المرجع السابق نفسه** ، ص ١٣ ، ١٤ ٠

5. Butler, J. Donald ; **Four Philosophies and Their Practice in Education and Religion**, New York, 1957, p. 206.

٦ ـ نازلى اسماعيل حسين ، **مرجع سابق** ، ص ٣٢ ٠

٧ ـ رالف بارتن بيرى ، **آفاق القيمة** ، (ترجمة : عبد المحسن عاطف سلام) ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٨ ، ص ٢١ ٠

7. Butler, J. Donald, op. cit., p. 132.

وانظر أيضا لمزيد من التفصيلات :
جورج ٠ نيلر ، **مقدمة الى فلسفة التربية** ، (ترجمة نظمى لوقا) ، القاهرة الانجلو المصرية ، ١٩٧٧ ، ص ص ٣٩ ـ ٤٤ ٠
وراجع أيضا ، محمد أحمد بيومى ، **علم اجتماع القيم** ، اسكندرية دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨١ ، ص ٤٦ ٠

٩ ـ جمهورية مصر العربية ، مجمع اللغة العربية ، **المعجم الفلسفى** ، القاهرة ، المطابع الأميرية ، ١٩٧٩ م ، ص ١٥١ ٠

١٠ ـ وانظر فى **المصدر السابق نفسه** ، ص ص ٦٢ ، ٨١ ٠

١١ ـ زكريا ابراهيم ، **المشكلة الخلقية** ، القاهرة ، مكتبة مصر ، ط ١ ١٩٨٠ ، ص ٧٢ ٠

١٢ ـ محمد أحمد بيومى ، **مرجع سابق** ، ص ٥٢ ٠

13. Brubacher, Johns, **Modern Philosophies of Education**, Bombay, 1969, p. 348.

14. Butler, J. Donald, op. cit., 334-54.

15. Rokeach, Milton, **The Natur of Human Values**, New York, The Free press, 1973, p. 5.

١٦ ـ جورج ٠ف٠ نيلر ، **مرجع سابق** ، ص ص ١٤ ، ١٥ ٠

١٧ ـ يراجع فى هذا الصدد :
سعيد اسماعيل على ، **أصول التربية الاسلامية** ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٧٨ ، الفصلان الاول والثانى ٠

١٨ ـ عبد الفتاح جلال ، **من الأصول التربوية فى الاسلام** ، سرس الليان ، المركز الدولى للتعليم الوظيفى للكبار فى العالم العربى ، ١٩٧٧ ، ص ٩٣ ٠

١٩ ـ أحمد فؤاد الأهوانى ، **القيم الروحيـة فى الاسلام** ، القاهرة ، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، ١٩٦٢لا ، ص ٤٥ ٠

٢٠ ـ **المرجع السابق نفسه** ، ص ٥٢ ٠

٢١ ـ زكى « مبارك ، **الاخلاق عند الامام الغزالى** ، القاهرة ، دار الشـعب ١٩٧٠ ، ص ص ٦٢ ـ ٦٥ ٠

٢٢ ـ أحمد فؤاد الأهوانى ، **مرجع سابق** ، ص ٦٦ ٠

٢٣ ـ محمد أحمد بيومى ، **علم اجتماع القيم** ، مرجع سابق ٠
ـ علم الاجتماع الدينى ، اسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ٠
* راجع فى ذلك كتابات : رفاعة الطهطاوى ، الاعمال الكاملة ـ محمد عبده ، الاعمال الكاملة ٠٠

24. Rokeach, Milton, op. cit., p. 8.

٢٥ ـ فوزية دياب ، **القيم والعادات الاجتماعية** ، القاهرة ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ ـ ص ص ٥٩ ـ ٦١ ٠